المجلة الأردنية للتاريخ والآثار
المجلّد ١٢، العدد ٢، ٢٠١٨م

الحياة الاجتماعية في المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)

سلطانة ملاح الرويلي *

ملخص

يستعرض هذا البحث مراحل جمع وتحقيق ودراسة مجموعة من الرسائل الوثائقية المهمة التي تعود إلى العصر العباسي، في المدة التي سيطر فيها البويهيون على مقاليد الحكم وموارد الدولة في بغداد عاصمة الخلافة وكثير من بلدان المشرق الإسلامي، وقد كتبها واحدٌ من أبرز كُتّاب الإدارة البويهية هو إبراهيم بن هِلّيل الصّابي. ووضّح البحث كيفية جمع الرسائل وتصنيفها إلى مجموعات حسب الأغراض التي كُتبت من أجلها: سياسية، وإدارية وغير ذلك. كما بيّن أهمية تلك الرسائل وتوفيرها مادة مهمة وكبيرة للكتابة التاريخية. وأفصح عن القطع المخطوطة التي اعتُمدت لإصدار (ديوان رسائل الصّابي) ومنهج تحقيقها. وقدّم البحث ترجمةً مفيدة لإبراهيم الصّابي ولطائفة الصابئة، وعرّف بالبويهيين، مشيراً إلى أهم مصادر دراسة تاريخهم.

الكلمات الدالة: الحياة الاجتماعية، كتاب التشوّف، التادلي.

المقدمة

تحتوي كتب التراجم على معلومات وإفادات تاريخية قيمة ومتنوعة حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية للرجال الذين تُترجم لهم هذه الكتب, وعادة ما تكون هذه الإفادات متناثرة وموزعة في ثنايا التراجم بحسب مكانة صاحب الترجمة ومذهبة واهتماماته الشخصية.

ويعد كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف، الذي ألفه أحد قضاة المالكية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، من أهم المصادر عن مجتمع المغرب الأقصى خلال تلك الحقبة، بما اشتمل عليه من تراجم متعددة لرجال الصوفية، وبيان اهتماماتهم وأعمالهم في داخل المجتمع، خاصة في مدينة مراكش، حاضرة المغرب الأقصى، وما تضمنه من آثارهم في النواحي الاقتصادية مما تحاول هذه الدراسة بيانه.

المؤلف:

هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبدالرحمن المعروف بالزيات التادلي، نسبة إلى

* قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الإدارية والإنسانية، جامعة الجوف، المملكة العربية السعودية. تاريخ استلام البحث ٢٠١٧/١٢/١٢م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٨/١/٢٥م.

 © ٢٠١٨م عمادة البحث العلمي/الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

"تادلة"[١]، وكان شيخًا وفقيهًا، وقاضيًا وأديبًا[٢]، ولم تكشف الدراسات التاريخية عن مولده ونشأته على نحوٍ واضح، لذلك لم نجد إلا افتراضًا لتاريخ مولده من خلال حديث التادلي عن تادلي نزل الحى وهو أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد بن مع الله حفيد أبي مع الله التادلي، ويقال إنه توفي عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وأنه أول من قرأ عليه ابن الزيات كتاب الله تعالى[٣].

مصنفاته:

من أهم ما يستدل به على مكانة الشخص، ما يخلف من آثار علمية نافعة، تحيي ذكره وتخلد اسمه، ويأمل ثوابها إن قرأها الدارسون وأفاد منها الباحثون، فقدم لنا آثارًا علمية قيمة تشهد له برجاحة عقله وصبره على التأليف، وقد أخذ ابن الزيات عن شيوخها متانة في العربية تظهر في هذا الأسلوب الجاحظى الملموس في مقدمة التشوّف[٣].

أما تأليفه في التصوّف فهذا كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار ابن العباس السبتى. وقد ذُكر له تأليف آخر في صلحاء المغرب، ولا نعرف عنه إلا هذه الإشارة التي نجدها عند أبي العباس الغبريني في كتاب عنوان الدراية في من عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية؛ حيث أورد كرامة في ترجمته أبي عبدالله العربي من شيوخ أوائل القرن السادس الهجري وعقب عليها بقوله: "ووقفت على مثل هذا المعنى في مخلص من المنتخب المغرب في ذكر بعض صلحاء المغرب"[٤]. إلا أن يكون المنتخب من كتب ابن الزيات الضائعة كما ذكر في مقدمة التشوّف[٥].

أما الشرح الذي وضعه لمقامات الحريري فهو من الكتب التي لم يُعثر عليها كذلك، ونجد عنوانه الكامل عند الفيروز آبادي (٧٢٩ –٨١٧هـ) في كتابة "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"؛ حيث يقول علي ابن الزيات" إمام في اللغة والنحو والأدب، له شرح المقامات الحريرية سمّاه: نهاية المقامات في دراية

(١)التادلي يوسف بن يحيى بن عيسى (ت٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)، التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، سلسلة الزخائر عدد ٢٠٥، القاهرة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، التنبكتى، أحمد بابا (ت ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م)، نيل الابتهاج بتقرير الديباج، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٣٢٥، العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١٠، ص٣٩٤.

(٢)تادلة، مدينة بالمغرب مهمة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٥٠٠م على الضفة اليمنى لوادي نهر أم الربيع، وهي تقع في منطقة اشتهرت بتربية الأغنام وزراعة القمح، وأهلها أغنياء، وسكانها بربر من قبيلة مصمودة، وسهولها آهلة بالعرب، انظر: الحسن الوزان، ابن محمد الفاسي المعروف باسم ليو الإفريقي (ت٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)، وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٨٣، مارمول كربخال، كان حيًا في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي) أفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، دار نشر المعرفة، المغرب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢، ص١١٦. التادلي، التشوّف، ص٤٣٨.

(٣)محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج١، دار الثقافة، ١٩٨٢م، ص٣٠٧.

(٤)الغبريني، أبو العباس احمد بن احمد (ت ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٩م، ص٥٠.

(٥)التادلي، التشوّف، ص١٢.

المقامات وهو أحسن الشروح[٦]. وأيضًا في بغية الوعاة نقلاً عن الفيروز آبادي يقول إن التادلي "إمامُ في اللغة والنحو والأدب"[٧].

مذهبه الدينى:

ومما سبق يتضح لنا أن المؤرخ التادلي، من قضاة المالكية؛ حيث كان المذهب السائد في الدولة الموحدية، والتادلي وإن كان قد تصوّف أو خالط رجال التصوّف ظل آخذًا بمسلك الاعتدال.

دوافع تأليف كتاب التشوف:

يقول التادلي عن دوافع تأليف هذا الكتاب: "ولما خفي عن كثير علم من كان بحضرة مراكش من الصالحين ومن قدمها من أكابر الفضلاء، رأيت أن أفرغ لذلك وقتًا أجمع فيه طائفة أدون أخبارهم، وأضيف إلى ذلك من كان من أعمالها، وما اتصل بها من أهل العدوة الدنيا، وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها، وإن كان من غيرها، إذا كان مماته بغيرها". وعن مصادر تراجمه يقول: "وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة والخير والصلاح ما استطعت، وربما ذكرت بإسنادي ما نقلته من ذلك، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة فاعتمدت على أصحها سندًا وأقربها إلى الصواب لفظًا"، إن الأشعار التي أتى بها لتعكس كالمرايا المصقولة تلك المعاني العميقة في أخبار الرجال ليست مما تلمس فيها الشطحات أو دعاوي الاحدية، وإنما هي أشعار تحنن وشكوى وزهد وموعظة[٨].

الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وظهور التصوف:

يظهر التصوف وينتشر حين يدب الضعف والوهن في كيان الدولة وتستشرى الفتن، وتحدث المجاعات والأوبئة والكوارث، فيصبح تدخل المتصوفة آنذاك بديلاً ضروريًا لإعادة التوازن السياسي والاجتماعي والدليل على ذلك قول التادلي: "قال لنا أبو العباس السبتي: من كان عند شيء فليتصدق به"[٩]، وبذلك نجد أن الأزمات بكل تجلياتها قد أفرزت حركة التصوّف، وشكلت المناخ الملائم لتوسعها، إلا إننا نلاحظ تعدد أنماط وتيارات الصوفية.

١- اتجاه صوفي نهج أصحابه نوعًا من المجاهدة النفسية والتقشف والزهد في سلوكهم اليومى، ونذكر على سبيل المثال أحمد بن عبدالملك بن عميرة الذي كان إمامًا في طريقة التصوّف[١٠]، وعبدالرحمن بن الصقر الأنصارى الذي "كان مائلاً إلى التصوف وقراءة كتب الزهد والرقائق"[١١]، فضلاً

---

(٦) الفيروز آبادي أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، البلغة من تراجم أئمة النحو واللغة، دار سعد الدين، ٢٠١٤م، ص٣٢٣.

(٧) السيوطي، عبدالرحمن بن محمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج٢، ص٣٦٣. الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٨، ص٢٥٧.

(٨) التادلي، التشوّف، ص٣٣-٣٤.

(٩) المصدر نفسه، ص٤٦٧.

(١٠) الضبى، أحمد بن يحيى، (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، المكتبة الأندلسية، مصر، ١٩٦٧م، ص١٨١.

(١١) ابن القاضى، أحمد المكناسي (ت ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، جذوه الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار

عن عدد كبير ساروا على الدرب نفسه.

٢- مجموعة آثروا اقتفاء أثر السلف الصالح، ورفضوا مبدأ المجاهدة النفسية، وتبنوا بدلاً من ذلك مبدأ المجاهدة الفعلية المتمثلة في المرابطة بالثغور المتاخمة للممالك النصرانية وغيرها للدفاع عن دار الإسلام والاستشهاد في معارك الجهاد، وخير مثال في هذا الشأن الفقيه الزاهد الإمام الصدفي[١٢]، ويطلق على هذا الاتجاه الغزاليون أي الذين تأثروا بمبادئ أبي حامد الغزالي وكتابة إحياء علوم الدين، إلا أنهم لم يتعمقوا فيه، ولم تكن لهم رؤية فلسفية واضحة[١٣] بل إن بعضهم كان أميًا مثل أبي الفضل بن يوسف بن النحوي[١٤]، وأبي عبدالله الدقاق الجلماسي[١٥]، ثم تلميذه أبي مدين شعيب الذي لبس منه الخرقة[١٦]، وأبي شعيب بن سعيد الصنهاجي[١٧].

ويتميز هذا الاتجاه بالتركيز على (البركة) والتشديد على الجانب الاجتماعي أكثر من الجوانب الأخرى، لذلك أكتسح مناطق شاسعة من بلاد المغرب.

ومهما كان الأمر، فثمة اشتراك تشترك فيه كل الاتجاهات الصوفية، فمن خلال كتاب التشوف نلاحظ أن معظمهم كان يشتغل إما في جمع الحطب، أو في حرف مثل البناء، والخبازة، والعطارة، والجزارة، والخياطة، والفلاحة، أو بائع بالأسواق، وأحيانًا كطبال، أو راعي، أو مُغَنٍّ في الأفراح، من خلال ذلك نجد أن معظم المتصوفة يرجعون إلى أصول فقيرة[١٨].

كذلك تميز المتصوفة بانعزالهم عن المجتمع، فكثير منهم لم يتزوج ولم يندمج في المجتمع واختيار حياة الانعزال ليعمل بيده ويتصدق على الفقراء[١٩].

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية:

مراكز الاستقرار البشري في الريف ومنازل القبائل:

يتضمن كتاب التشوّف العديد من الإشارات القيمة حول مراكز الاستقرار البشري في الريف "أو الوادي وفق المصطلح المغربي"، وكذلك منازل بعض القبائل البربرية، مما يوضح جانبًا مهمًا من خريطة المغرب الأقصى وعمرانه البشري، خاصة أن بعض المواضع أو القرى ما تزال قائمة رغم

المنصور للطباعة والوراقة الرباط، ١٩٧٣م، قسم٢، ص٤٠٩.

(١٢) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، المغرب، ٢٠٠٤م، ص١٣١.

(١٣) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص١٣١.

(١٤) التادلي، التشوّف، ص٩٥.

(١٥) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٥٩.

(١٦) ابن أبى زرع أبو الحسن بن عبدالله الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، الأنيس المطرب، بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٧٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(١٨) التادلي، التشوّف، ص١٦١.

(١٩) المصدر نفسه، ص٤٢٢.

اندثار الكثير منها بفعل عوادي الزمن.

فمن خلال كتاب التشوّف نستنتج جوز أو أجوز "أكوز" كانت قاعدة بلد رجراجة ومقر العامل في عهد المؤلف، كما كانت مرسى على ساحل المحيط تنزل بها السفن، وربها يجبي الخراج، واحتوت على جامع وسجن(٢٠). وعلاوة على ذلك زودنا التادلي بأسماء العديد من القرى في المغرب الأقصى، ومنها: قصر كتامة قرب نهر ورغة شمال المغرب الأقصى(٢١)، ووقراط من بلاد دكالة(٢٢)، وماسة(٢٣) وأدرار ببلدة رجراجة من أقاليم المغرب الأقصى(٢٤)، وقرية تاجدينت وايفرجان وتغروت فى بلاد تادلا(٢٥)، وقرية توصف وأفوجك وتكدورت ببلد أزمور(٢٦).

نستنتج مما أورده التادلي معلومات مهمة حول منازل بعض القبائل في الحواضر والبوادى المغربية، ومن ذلك أن قبيلة هوارة(٢٧) كانت تمثل معظم سكان مدينة أغمات(٢٨).

كما كان المصادة يشكلون أغلبية قرب رباط عقبة من بلد نفيس(٢٩).

البيوت الشهيرة:

أشار التادلي إلى بعض البيوتات المغربية الشهيرة ومنها أسرة بني عشرة قضاة سلا وأعيانها، فيذكر

---

(٢٠) التادلي، التشوّف، ص٣٥٥، العباس بن إبراهيم، الإعلام، ج١، ص١٠٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٢٨، مجهول (الف كتابه في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد ١٩٨٥م، ص١٩٠.

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٣١، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٧. الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص١٥٥.

(٢٣) ماسه، مدينة قديمة بناها الأفارقة على ساحل المحيط الأطلنطي عند مصب نهر السوس الكبير الذي يمر بوسطها، وهي مدينة عليها سور من الطوب وبها جامع وسوق، وأرضها خصبة ويزرعون عدة أنواع من المحاصيل والبساتين. الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص١٢٥-١٢٦.

(٢٤) التادلي، التشوّف، ص٢٦٧، ٣٥٠.

(٢٥) التادلي، التشوّف، ص٢٦٨، ٣٣٩ ،٣٩٧ ،٤٠٣. الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص١٨٣.

(٢٦) أزمور، مدينة من منطقة وكالة، وقد شيدها الأفارقة على ساحل المحيط الأطلنطي عند مصب نهر أم الربيع، وهي مدينة كبيرة مأهولة بالسكان، وتنتج الكثير من القمح وتشتهر بصيد أنواع عدة من الأسماك، للمزيد، انظر: الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص٤٠٨ ، ٤١٤، ٤١٩.

(٢٧) هوارة، من القبائل العربية الهلالية التي دخلت بلاد المغرب وكان لهم الدور الكبير في إسقاط دولة بني زيري الصنهاجية. ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م), العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، ١٩٨١م، ج٦، ص١٠٠٩.

(٢٨) أغمات، مدينتان إحداهما تسمي أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة بينهما نحو ثمانية أميال، بالقرب من وادي درعة، وأهل المدينة تجار مياسير يتاجرون مع بلاد السودان، ويكثر بها المياه نتيجة النهر الذي يمر بها، لذلك بها كثير من الزروع والبساتين. الحميري، محمد عبدالمنعم (ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦٣م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٤م، ص٤٦.

(٢٩) نفيس، مدينة قديمة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائل البربر، ويزرع بها القمح في كثير من البلاد، وبها جامع وسوق.الحميري، الروض المعطار، ص٥٧٨.

أن منهم متصوفة من أمثال عبدالرحمن بن يوسف بن عشرة وأخوه عبدالله، وكان من الزهاد المتصوّفة في بلدتهما سلا خلال عصر الموحدين (في القرن ٦هـ/ ١٢م)[٣٠].

ويبدو أن تغير الدولة الموحدية على بني عشرة وانصرافها عنهم بعد أن تمتعوا من قبل في ظل دولة المرابطين النفوذ والجاه كان من أسباب اتجاه بعض أفراد تلك الأسرة إلى حياة التصوف وتقديم العون للمحتاجين، فيتضح مما أورده صاحب التشوف أن بني عشرة في العصر الموحدي اهتموا اهتمامًا كبيرًا بالقيام بأعمال البر والخير، ومن ذلك أنهم حبسوا أرضًا بسلا[٣١] لدفن الموتى من فقراء المسلمين، كما بنت إحدى سيدات تلك الأسرة رابطة أو دارًا على ساحل المحيط بسلا تعرف برابطة دار أم القاضي –كما سبقت الإشارة– ليلتقي فيها أهل الصلاح والتدين، كما شيدت بها مسجدًا ليصلي فيه أصحاب الزوارق الذين ينقلون الناس بالوادي حتى لا يتخلفوا عن صلاة الجماعة[٣٢].

وأمدنا التادلي أيضًا بمعلومات عن بيت بني أمغار، وهو من البيوتات الشهيرة في بلاد أزمور، وقد سكن بنو أمغار تيطنفر، حيث تولوا الإشراف عليه ورعايته، وكانوا من الزهاد المتصوفة، ويصفهم صاحب التشوف بأنهم بيت خير وصلاح وولاية، وتمتعوا بمنزلة رفيعة في عهد الخليفة الناصر الموحدي[٣٣].

كما أشار إلى أسرة الفقيه المتصوف عبدالغفور بن يوسف الإيلاني، التي كانت تسكن بلاد إيلان إلى الجنوب الشرقي من الحاضرة مراكش، ويذكر أن تلك الأسرة كانت لديها صكوك من الحكام بالحمل على البر والرعاية[٣٤] .

وتعرض التادلي لبعض البيوتات الفاسية أيضًا مثل أسرة بني دبوس[٣٥]، ومنهم عبدالحق بن عبدالله بن دبوس اليقرني القاضي ت بفاس سنة ٥٥٧هـ، وكان بيتهم بيت علم وثراء بالحاضرة فاس، وإليهم

---

(٣٠) التادلي، التشوّف، ص٢٠٢.

(٣١) سلا، مدينة قديمة علي المحيط الأطلنطي حيث ترسوا بها المراكب من الأندلس، وهي مدينة عامرة بالأسواق وأهلها أثرياء، كما يكثر بها الزروع, ويفد إليها الكثير من تجار الأندلس للتجارة. الحميري، مصدر سابق، ص٣١٩.

(٣٢) التادلي، التشوّف، ص٢٨٧، ويرى بعض الباحثين أن عبدالله بن عشرة الذي أشار إليه التادلي هو صاحب الضريح القائم الآن بباب حساين بسلا، وهو من أبناء يوسف بن عشرة الذي مدح ابن بقي الأندلسي في إحدى موشحاته. ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ١٩٥٣م، ج١، ص١٢– ٤١١، البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت القرن ٦هـ/ ١٢م)، أخبار المهدى بن تومرت، تحقيق عبدالحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٧٥م، ص٥٥، حمدى عبدالمنعم، مدينة سلا في العصر الإسلامي، إسكندرية، د.ت، ص٦٦.

(٣٣) التادلي، التشوّف، ص٢٨٧.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٥٢.

(٣٥) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، بيوتات فاس الكبرا، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٦.

تنسب عقبة ابن دبوس القاضي[٣٦]،وكذلك هناك بيت بني أبي حاج[٣٧]، وهو من بيوتات فاس المعروفة حيث كانت العديد من أفراد تلك الأسرة من الفقهاء والمتصوفة[٣٨].

نستنتج مما ورده صاحب التشوّف قيام الكثير من المتصوّفة المغاربة المعتدلين بدور بارز في خدمة مجتمعهم، والإسهام في أعمال البر والخير ورعاية المرضى والأرامل وطلاب العلم الفقراء، ومن ذلك تصدق بعض شيوخ الصوفية بأموالهم على مرضى الجذام بمراكش[٣٩]، وقيام الصوفي أبى عمران موسى الصاريوي ببيع أرضه والتصدق بثمنها على المساكين[٤٠]، كما جلس بعضهم لتدريس العلوم الشرعية محتسبين دون أجر[٤١].

ويضيف التادلي أن الصوفي إسحق بن محمد الهزرجى المراكشي ت سنة ٥٨١هـ كان يتفقد الصبيان في مكاتبهم بالحاضرة مراكش، فيسأل عن الأيتام وأبناء الفقراء ويكسوهم[٤٢].

كذلك تصدّق الكثير منهم بما لديهم من مؤن على الفقراء؛ للتخفيف من معاناتهم خاصة في أوقات القحط والمجاعات[٤٣]، كما حرص بعضهم على تقديم العوض للأرامل والضعفاء في الحي الذي يسكنون فيه، ومن ذلك قيام الصوفي علي ابن عبدالرحمن المعروف بابن الدلال بخدمة أهل المحلة التي كان يقيم فيها بالحاضرة مراكش، فكان يتصرف في حوائج الضعفاء، ويستقى الماء للأرامل ويحمل لهم الخبز إلى الفرن[٤٤].

ومن ناحية أخرى كان بعض المتصوفة يقدمون المساعدات المالية لطلبة العلم الفقراء، فيشير التادلي إلى قيام الفقيه الزاهد أبى العباس السبتى بالإنفاق على طلبة العلم الغرباء بالحاضرة مراكش[٤٥].

العادات والتقاليد:

زودنا التادلي بكثير من الإشارات المهمة عن بعض العادات والتقاليد المغربية، ومن ذلك أن سكان بعض المناطق كانوا يعقدون أنكحتهم في المسجد وقت السحر[٤٦]، وأن الزواج بالجارية الحبشية أو الزنجية كان عارًا عند قبائل المصامدة[٤٧] نظرًا إلى وجود البربريات، وهنّ أطبع الخلق على الطاعة،

(٣٦) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرا، ص ٩٩.
(٣٧) المصدر نفسه، ص٤٤.
(٣٨) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص٣٨٨.
(٣٩) التادلي، التشوّف، ص ٤٥٥.
(٤٠) المصدر نفسه، ص٢٨٩.
(٤١) المصدر نفسه، ص١٤٦، ١٨٤.
(٤٢) التادلي، التشوّف، ص١٨٧، ٢٠٠، ٢١٠، ٢٤١.
(٤٣) المصدر نفسه، ص١٨٣، ٢٠٧، ٢٤٧.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(٤٥) المصدر نفسه، ص٤٥٢، ٤٥٥، العباس بن إبراهيم، الإعلام، ج١، ص٢٣٩.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

وأنشطهم للعمل وأصلحهم للتوليد وأحسنهم للولد[٤٨].

ومن العادات المغربية أيضًا، إتحاف الزوج لعروسه ببعض الهدايا عقب الزفاف[٤٩]، وإعداد وليمة ضخمة عند ختان أحد أبنائهم لإطعام الأقارب والجيران[٥٠]، والحرص على شراء أضحية العيد رغم الضيق المادي الذي قد تعانيه الأسرة وذلك من أجل التفاخر[٥١].

كذلك كان من عاداتهم قيام الفلاحين من أصحاب الأراضي الزراعية باستئجار أُجراء وقت الحصاد[٥٢]، وزيارة شيوخ المتصوفة من جميع أنحاء المغرب الأقصى؛ حيث يذكر التادلي أن الناس كانوا يأتون لزيارة الشيخ أبي يعزى بلوز ابن ميمون بهسكورة قرب جبل إيروجان فيطمعهم من عنده، في حين يتولى أهل القرى المجاور ضيافة الواصلين لزيارته[٥٣]، ويضيف التادلي أن من عادة الناس الذين يسكنون قرب السواحل خروجهم إلى شاطئ البحر في وقت الصيف حيث تشتد الحرارة فينصبون خيامهم للتمتع باعتدال الهواء، والترويح عن النفس[٥٤].

الأطعمة والأزياء ووسائل التسلية:

اشتمل كتاب التشوف للتادلي على معلومات وافرة عن الأطعمة المغربية، ومن ذلك ثريد الدرمك (أي القمح) بالزعفران واللحم الغنمى المفوه؛ أي المضاف إليه التوابل[٥٥]، وثريدة الفول بالسمن التي كان يأكلها –عادة– الحصادون من أهل فاس، وثريدة باللبن[٥٦]، وعصيدة الشعير بالسمن[٥٧].

علاوة على خبز الشعير الذي كان شائعًا لدى المتصوفة[٥٨]، ويضيف أن الطعام المغربي كان يتكون –أحيانًا– من خبز من البر؛ أي القمح، وصفحة بها لحم الضأن المشوي[٥٩].

---

(٤٨) المالقي، أبو عبدالله محمد بن أبي محمد السقطي (ت ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م). في أداب الحسبة، تحقيق حسن الزين، دار الفكر الحديث بيروت لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٦٥.

(٤٩) التادلي، التشوّف، ص١٠٠، كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الاسكندرية، ١٩٩١م، ص ١٥.

(٥٠) التادلي، التشوّف، ص٣٨١، الونشريشى، احمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وتحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ج ٨، ص١٤٦، ١٤٧.

(٥١) التادلي، التشوّف، ص ٢٧٤.

(٥٢) المصدر نفسه، ص٢٥٧، ٢٧٧.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٢٢٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ص٣٥٢.

(٥٦) المصدر نفسه، ص١٠٣، ٣٦٨.

(٥٧) المصدر نفسه، ص٢٤٥، ٢٥١.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٢٤٤.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

ومن ناحية أخرى كانت تصنع بالسوق الفطائر المقبلة بالزيت والمعروفة بالأسفنج والهريسة[٦٠]، التي تصنع من الدقيق واللحم، وكذلك الحوت "الأسماك"، الذي كان يقدم في المطاعم المنتشرة بأسواق المدن الساحلية أو الواقعة على مقربة من الأنهار[٦١] .

واحتوى كتاب التشوف أيضًا على إشارات عديدة من الأزياء وخاصة زي المتصوفة، سواء الرجال أو النساء، فيذكر التادلي أن الصوفي أبا حدو القاسم الإيلاني كان يرتدي على رأسه خرقة صوف، وعلى كتفيه أخرى وعلى وسطه مثل ذلك[٦٢]، ويضيف أن بعضهم كان يضع العمامة أو القوة على الرأس[٦٣]، كما حرصوا في فصل الشتاء على ارتداء الأكسية الصوفية، واستخدام اللحاف كغطاء للحماية من البرد، كما ارتدوا الجبّة[٦٤]، والبرنوس، وأحيانًا كانوا يرتدون الجلابية[٦٥]، وفوقها الجبة[٦٦]، أما المتصوفات من النساء فكن يلبسن الجبة الصوفية والخمار[٦٧]، الذي يشبه المنديل الرقيق الذي يثبت خلف الرأس ويغطي الجزء الأسفل من الوجه فيما تحت العينين.

أما في ما يختص بوسائل التسلية، فقد ألمح التادلي إلى بعضها، ومنها الصيد أو القنص وبخاصة صيد الأرانب البرية خارج مدينة بني تاودا قرب جبال غمارة وصيد الظباء بجبال بلد هسكورة[٦٨]، كما أشار صاحب التشوف إلى مجالس الأنس والغناء والموسيقى خاصة في احتفالات الزواج[٦٩].

دور الصوفية في رفع معاناة العامة:

وإلى جانب ذلك نجد للمتصوفة أدوار أخرى داخل المجتمع المغربي؛ لأن الفرد في أي مجتمع من المجتمعات تتعاقب عليه حالات يشعر فيها بالخوف من السلطة السياسة أو من غدر الطبيعة (كوارث– جفاف– مجاعات–مرضى)، أو يعجز عن تحقيق حلمة ورغباته فيكون اللجوء إلى الولي هو السبيل

(٦٠) التادلي، التشوّف، ص ٢٤٢.

(٦١) التادلي، التشوّف، ص٢٤٢، ٢٤٩، ٣٣١. للمزيد حول الأطعمة، انظر: سعيد بنحمادة، صناعة الطبخ وحرفية الطباخين بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، بحث ضمن ندوة الحرف والصنائع بالمغرب الإسلامي، منشورات الزمن المغرب، ٢٠١٤م، ص٨٧– ٨٩.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٨١ .

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦، ٢١٦، ٢٧٤.

(٦٤) عبارة عن ثوب فضفاض مستطيل يصنع من الأقمشة الصوفية وذي أثواب مختلفة. انظر: عبدالعزيز الأهواني، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٣٠٠.

(٦٥) الجلابية، عبارة عن جلباب من الصوف مفتوح فى جزء منه. انظر:

Goitein, S.D: Letters of Medieval Jewish Traders, Princetan University Press 1975.The exchange rate of cold and silver money in fatimid and ayyubid Times, journal of economic and social history of the Orient, V. 111-1965.p242

(٦٦) التادلي، التشوّف، ص٣٦٨، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد المغرب، ١٩٨٤م، ص٢١٨.

(٦٧) المصدر نفسه، ص١١٢.

(٦٨) التادلي، التشوّف، ص٢٧٣، ٣٦٤.

(٦٩) المصدر نفسه، ص٤٠١، ٤١٩.

الأوحد لتحقيق مسعاه[٧٠]. وتعكس نصوص كتاب التشوف صحة هذه الأدوار ودورهم الاجتماعي.

رفع معاناة العامة:

كان العوام كثيرًا ما يلجأون إلى المتصوفة لرفع كل ما يحاق بهم من مكروه، فنجد عندما ضرب مدينة فاس[٧١] قحطُ لجأ أحد العوام مندوبًا عن أهل فاس إلى يعلى أبي جبل[٧٢] يلتمسون دعواته لهم بنزول المطر، يقول التادلي: "وقحط الناس في بعض الأعوام فبعثوا إليه رجلاً عساه أن يدعو لهم بماء المطر فما رجع الرجل حتى غيمت السماء وغيث الناس"[٧٣]، كما أن أهل تلمسان[٧٤]، استغاثوا بأبي زكريا بن يوغان الصنهاجي[٧٥]، عندما ضرب تلمسان القحط فاستجاب الله سبحانه وتعالى لصلاة أبى زكريا بن يوغان فسقوا[٧٦]، وكذلك طلب سكان مدينة داى[٧٧] من الوالي أبي زكريا بن محمد الجراوي[٧٨] أن يستقي لهم فوعدهم أن يتربصوا إلى يوم السبت، فتربصوا فاستسقى لهم يوم السبت فسقوا[٧٩]، ويوجد الكثير من هؤلاء المتصوفة ودورهم في استغاثة العوام.

أما عن دورهم في رفع حاجة الناس في أثناء الجفاف والمجاعات والضرائب فالنصوص كثيرة عن

---

(٧٠) إبراهيم القادرى بوتشيش، المغرب والأندلس، ص١٥٥- ١٥٦.

(٧١) فاس، مدينتان متفرقتان، مسورتان، والمدينتان عدوة الأندلس، وأسست عام ١٩٢هـ/ ٨٠٧م، وعدوة القرويين أسست عام ١٩٢هـ/ ٨٠٧م، في عهد ولاية إدريس بن إدريس، ويخترق المدينة ثمانية أنهار عليها نحو ستمائة رحى في داخل المدينة، لا تبطل ليلاً ولا نهارًا، وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها، لذلك كثر بها محترفو صبغ الملابس، وبها ثلاث جوامع منها جامع القرويين، وجامع الأندلس، ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء، كثيرة البساتين والفاكهة. البكري، أبو عبيد (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، المغرب في ذكر بلاد المغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص٨٨، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج٥، ص٢٣٠، الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص٢٢٤ – ٢٢٦.

(٧٢) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص ٥٦٠.

(٧٣) التادلي، التشوّف، ص١٠٤.

(٧٤) تلمسان: مملكة يحدها من الغرب نهر زا ونهر ملوية، ومن الشرق نهر الواد الكبير، وصحراء نوميديا من الجنوب، وخضعت هذه المملكة لملوك بني عبدالواد الذين دخلوا في حروب عدة مع بني مرين. الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص٣٧٩ – ٣٨٢.

(٧٥) أبو زكريا بن يوغان الصنهاجى، كان من أمراء صنهاجة من تلاميذ أبي محمد عبدالسلام التونسي، قدم على عبدالسلام التونسي وقال له أريد أن أكون من تلامذتك، فقال له عبدالسلام إن كنت تريد أن تكون من تلاميذى فاذهب إلى الجبل واحتطب حزمة وادخل بها رحية القصر، وهي على ظهرك حتى يذهب ما فيك من الكبر والنخوة والزعامة ، فذهب وقام بما أمر به ثم خرج أبو زكريا يوغان إلى الصحراء وكانت له ناقتان يرعاهما ويشرب من ألبانهما وعاش بالصحراء إلى أن مات عام ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢م، التادلي، التشوّف، ص١٢٣ – ١٢٤.

(٧٦) التادلي، التشوّف، ص١٢٤.

(٧٧) مدينة داي، مدينة صغيرة بينها وبين أغمات أربعة أيام وهي عامرة يمر بها القوافل واردة وصادرة، وهي في وادٍ يكثر به زراعة القطن، كما بها معدن النحاس وغيره. الحميري، الروض المعطار، ص٢٣١.

(٧٨) أبو زكريا محمد الجراوى، من بلاد تادلا .

(٧٩) التادلي، التشوّف، ص١٣٨.

دور المتصوفة في رفع معاناة العوام، حيث استغاث أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبدالرحمن التادلي(٨٠) بعوام مراكش الذين لجأوا إلى جامع بن يوسف للاستغاثة من الفقر الذي أصابهم من جراء المجاعة التي ضربت مراكش، فما كان منه أن أخرج قمحًا وسمنًا كان عنده ففرقه عليهم حتى لم يبق منه شيء(٨١) وقام متصوفُ ويدعى أبو حفص عمر بن معاد الصنهاجي كبير الشأن من أهل العلم والعمل وكان مؤثرًا للعزلة وكان يخلو بالبرية ويصطاد أجباح النحل والحوت من سواحل المحيط الأطلنطي فيقتات بذلك، وعندما ضرب مدينة أزمور قحط عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م فكان يجمع خلقًا كثيرًا من المساكين ويقوم بمؤنتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس(٨٢)، وشهدت فاس جفافًا آخر في بعض السنوات، فاستغاث أهلها بأبي يعزى(٨٣) وقصدوه في المسجد الذي كان يقيم به فأخذ في البكاء والتضرع إلى أن غيّمت السماء وهملت بالأمطار(٨٤)، وكتاب التشوف ملأى بنصوص أخرى حول الاستسقاء.

أما عن دور المتصوّفة في رفع معاناة العوام عندما تضربهم مجاعة، فكان دورهم كبيرًا؛ حيث يقول التادلي عن أبي عبدالله محمد بن مفرج الأنصاري "كان زاهدًا في الدنيا، أقبلت عليه فكان يفرقها ولا يمسك منها شيئًا"(٨٥).

كما كان للمتصوف أبي عمران موسى ابن إسحق الوريكي المعلم، وكان من أهل الزهور والكبر والركون إلى الدنيا ونعيمها، إلا أنه انقلب حاله فزهد في الدنيا ومتاعها، وما جاء مسكين وعنده ما يعطيه إلا أعطاه، فإن لم يجد شيئا يعطيه قام معه إلى السوق يمشي على الناس ويسألهم له(٨٦)، ويتجلى موقفه في المجاعة التي ضربت مراكش عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م عندما دفع إليه أربعمائة دينار وقت المجاعة فتصدق بجميعها على المساكين(٨٧).

إضافة إلى ذلك، باعت امرأة منزلها لعدم قدرتها على مقاومة المجاعة التي ضربت مراكش، فتقدم أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن الهواري إلى الشراء بمبلغ خمسمائة دينار، وعندما علم أن المرأة تبعيه لحاجتها خرج وبعث إليها في السرّ: إن الدار باقية على ملكك والمال مالك، فانتفى به فإنما

(٨٠) أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبدالرحمن التاظر ت ٥٧٣هـ، التادلي، التشوّف، ص٢٤٥.

(٨١) التادلي، التشوّف، ص٢٤٦.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٨٣) أبو يعزى، هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، ولد بسبتة عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م ونزل مراكش، وبها مات عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وكان ابن يعزي جميل الصورة حسن الثياب فصيح اللسان، رحيمًا عطوفًا محسنًا إلى المساكين واليتامى والأرامل، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة فتنهال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف. التادلي، التشوّف، ص٤٥٢-٤٥٣.

(٨٤) التادلي، التشوّف، ص٢١٨.

(٨٥) المصدر نفسه، ص٣٨٠، العباس بن إبراهيم، الأعلام، ج٤، ص١٥٤.

(٨٦) المصدر نفسه، ص٢٩٧، ٢٩٨، أبو العباس إبراهيم، الأعلام، ج٧، ص٢٩٠.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

بعثته –أي المبلغ خمسمائة– دينار لتسدّي به فاقتك(٨٨).

والأدلة كثيرة حول ما قام به المتصوّفة للتخفيف من الضرائب التي أثقلت كاهل العوام، فقد بلغ إلى علم أحد المتصوفة وهو تُنفيت البرصبجي أن عاملاً من عمال علي بن يوسف المرابطي طالب الناس بمغارم غير شرعية، فدعا عليه، ولم تمضِ إلا أيام يسيرة حتى جاء كتاب الأمير بعزله، لذلك لم يؤد الناس من المغارم شيئًا(٨٩).

دورهم في الرحمة والإحسان:

يشكل هذا الدور قاسمًا مشتركًا بين عامة الاتجاهات التصوفية، فمن خلال القراءة في تراجم المتصوفة يبرز الجانب الإنساني في سلوكهم ومواقفهم الاجتماعية، ويتجلى ذلك في قيم الرحمة والإحسان والإيثار التي جعلوها مبدأ وغاية حتى صارت من مكونات شخصيتهم، فقد أقدموا على مشاركة الفقراء إحساسهم بمرارة الفقر، وبذل ما تمكنت به أيديهم بسخاء(٩٠) وعن ذلك يقول التادلي عن أبي العباس السبتي "وكان إذا أتاه أحد يأمر أتاه، يأمره بالصدقة ويقول له: تصدق ويتفق لك كل ما تريد"(٩١).

ويبرز هذا الشعور الإنساني في تعاملهم مع الفقراء والمحتاجين بواسطة الإحسان لهم، وبذل الموسرين منهم كل ما ملكت أيديهم، يقول التادلي "أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف من أهل سلا"، كان ذا مال فتصدق بجميعه وعزفت نفسه عن الدنيا وأهلها"(٩٢).

وأيضًا أبو عمران موسى بن عبدالله الأسود كان رجلاً خيّرًا من أهل السخاء والإثار(٩٣)، كما وجد المتصوف أبو العباس أحمد بن عبدالعزيز السلالجى الخزاز، فكان يطرح عليه أنواع الثياب، فيطرحها على الفقراء ويبقى بمرقعة(٩٤) ووصل الأمر بأبي يلبخت أن يتصدق بالثور الذي كان معدًا للذبح يوم ختان ولده، فنراه يتصدق به للفقراء لذبحه وإطعامه لهم(٩٥).

ووصل الأمر بالمتصوفة وإحساسهم بالمساكين وحرصهم على دفع المعاناة عنهم، مثل: أبي عمران موسى الصاريوى الذي باع أرضًا له وتصدق بثمنها على المساكين(٩٦). ويتجلى العمل الاجتماعي الإنساني في أبي زكريا يحيى بن علي الزواوي الذي اكترى فندقًا بثلاثمائة دينار ثم مر على أعيان

(٨٨) التادلي، التشوّف، ص١٥٣.

(٨٩) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٩٠) إبراهيم القادى بوتشيش، المغرب والأندلس، ص١٣٩.

(٩١) التادلي، التشوّف، ص ٤٥٤.

(٩٢) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(٩٣) المصدر نفسه، ص٣٦٣.

(٩٤) المصدر نفسه، ص٣٧٧.

(٩٥) المصدر نفسه، ص٣٨١.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

بجاية[٩٧] وأخذ منهم ما دفعوه للصرف على المساكين، من مأكل ومشرب وملبس يقيهم من البرد، ويؤكد ذلك التادلي "وجعل عليهم فيما يقوم بهم وأغناهم عن السؤال"[٩٨]، وكذلك ابن يعزى الذي انطلق من مبدأ التساوى بين الأغنياء والفقراء، حيث كان الإحسان يمثل عنصرًا أساسيًا في فكره ومذهبه، يقول التادلي "فكان الغرباء الواردون على مراكش من طلبة العلم يأوون إليه فينفق عليهم جميع ما يكون عنده...، وكان يأتينا بالطعام على رأسه"[٩٩]، وكان ينادى في الناس بقوله: من كان عنده شيء فليتصدق به[١٠٠].

ولم ينصب عمل المتصوفة على أبناء جنسه بل تعدى إلى أهل الحي المقيمين فيه، يقول التادلي "كان –أبو الحسن على بن عبدالرحمن المعروف بن الدلال– يخدم أهل المحلة التي كان يسكن فيها ويتصرف في حوائج الضعفاء ويستقى الماء للأرامل ويحمل لهم الخبز إلى الفرن"[١٠١].

كما كان لهم دور في لهفة المستغاثين، مثل أبي علي حسين بن عبدالله الأندلسي المعروف بابن يابو، الذي رد لهفه رجل سرقت أغراضه فدعا له إلى أن استجابت دعوته وردت ما سلب منه[١٠٢].

المتصوفة وعلاج المجتمع من رذيلة شرب الخمر والرقص والأمراض:

أدّى المتصوّفة دورًا أخلاقيًا قل نظيره، فلم يقتصر على الجانب الأخلاقي فحسب، بل الموعظة الحسنة والدعوة إلى الزهد في الحياة، والتمسك بالدين وتجنب الطمع، والابتعاد عن البدعة، والبذل والسخاء والإخلاص في العمل ومجالسة العلماء وأهل المعرفة[١٠٣]، وبالتأمل في كتاب التشوف يلاحظ أن أغلب أعمال المتصوفة تصب في الاتجاه ذاته، فقد تضمنت دعوة صريحة للابتعاد عن المنكر[١٠٤]، مثلما فعل أبو يعقوب يوسف بن محمد بن أمغار الصنهاجي[١٠٥]، كما كان لهم الدور الفعال في محاربة المناكر، يقول أبو زكريا يحيى بن علي الزواوي: "أيها الناس إني راحل عنكم...، وَلِمَ ترحل عنا يا أبا زكريا؟ فقال: لأنكم تشاهدون المناكر فلا تغيرونها"[١٠٦].

إضافة إلى ذلك نجد من امتهن مهن خسيسة، مثل الغناء في الأفراح، مثل أبي علي منصور بن

---

(٩٧) بجاية: مدينة قديمة بناها الرومان فوق سفح جبل شديد الارتفاع, على ساحل البحر المتوسط, ويحيط المدينة أسوار عالية قوية, وتضم ثمانية آلاف أسرة, وتحتوي المدينة على أسواق وزوايا ومساجد ومدارس وحمامات وفنادق, وأهلها على قدر كبير من الغنى. الحسن الوزان, وصف أفريقيا, ص٤٢٢.

(٩٨) التادلي، التشوّف، ص٤٢٩.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٤٦٧.

(١٠١) المصدر نفسه، ص٣٤١.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص٣٩٣– ٣٩٤.

(١٠٣) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص١٦٠.

(١٠٤) التادلي، التشوّف، ص٤٢٧.

(١٠٥) من أهل رباط يتطنفطر من بلد أزمور، توفي عام ٦١٤هـ/ ١٢٢٦م، التشوّف، ص٤٢٦.

(١٠٦) التادلي، التشوّف، ص ٤٢٨.

صفية الصنهاجي، يقول التادلي: "كان أبو علي مسرفًا على نفسه يغني في الأعراس ويلعب فيها، ثم نزعت به إلى الله همة عالية فلحق بالصالحين"[١٠٧]، وكذلك أبو عبدالله محمد بن موسى الأركاني[١٠٨]، وممن تاب إلى الله من الغناء بالأعراس: أبو ولجوط تونارت الهزميري[١٠٩] وأيضًا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الصنهاجي، كان محبًا للهو يغني في الأعراس ويضرب الدف[١١٠]، وتاب على يد أبي شعيب أيوب السارية، فأقبل على العبادة ثم انقطع عن الناس واعتزلهم.

كما تمكن بعض المتصوفة من هداية المنحرفين، وأهل الدعارة والفساد، يقول التادلي: "وحدثوا عنه –أي أبي محمد عبدالسلام التونسي[١١١]– أنه كان بتلمسان رجل من أهل الدعارة، فشكاه الناس كثيرًا، فلقيه عبدالسلام فأخذ بأثوابه وضرب به الحائط، وقال له: "يا هذا آذيت المسلمين حتى أكثروا بك الشكوى، فانكب الرجل على رجليه يقبلها وهو يقول: "أتوب إلى الله عز وجل...، ما أبرك علي هذا اليوم الذي أدبتني فيه، فتاب الرجل إلى الله تعالى، وأقبل على العبادة"[١١٢]، إضافة إلى قيام ريحان الأسود القاطن بسبتة الذي هذّب أخلاق امرأة أسر زوجها وهي مقيمة في منزلها وحدها، وعندما دعته رأت منه ما جعلها تصرع منه ومن هيبته، وعندما شكت لها عن أسر زوجها وضعف حالها فقال لا يجيء يوم كذا وكذا، وفعلاً أطلق سراح زوجها في الموعد المحدد[١١٣].

كما دعا المتصوفة إلى سلوك سبيل العبادة، وإقامة فرائض الصلاة، وهذا السلوك يعكس حرص المتصوفة على محاربة ظاهرة اللصوصية[١١٤]، يقول التادلي: "فإذا اللصوص خارج القرية –عدوة وادي أم الربيع– مرتقبين من يمر بهم فيجردوه من ثيابه، فعاينوا كساء أبي حفص[١١٥]، وهو أبيض في ظلام الليل، فتبعوه... فدخل في المسجد، فقعدوا ينتظرونه عند باب المسجد، وقالوا: "إذا خرج علينا أخذنا كساءه، فخرج من باب المسجد ولم يشعروا به حتى بعد عنهم، فتبعوه إلى أن وصل وادي أم الربيع... فوجدوه قد دخل داره، فانتظروا ساعة، ثم قرعوا الباب، فخرج إليهم، فتابوا بين يديه وحلقوا رؤوسهم، فدعا لهم وانصرفوا"[١١٦]، ولذا نجح أبو حفص في وعظه وهدايته فتحول قطاع الطرق إلى متصوفين زهاد.

---

(١٠٧) التادلي، التشوّف، ص ٤١٩.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٤٠١.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ٣١١.

(١١١) أبو محمد عبدالسلام التونسي، أصله من تونس وصحب عمه عبدالعزيز، ولما مات عمه رحل إلى تلمسان، وكان عارفًا بالمسائل الصوفية، زاهدًا في الدنيا متقشف صلبًا في الحق مغلظًا على الأمراء، لا يخاف في الله لومة لائم، توفي بإحدى قرى تلمسان تسمى بالعباد، انظر: التادلي، التشوّف، ص١١٠.

(١١٢) التادلي، التشوّف، ص١١١-١١٢.

(١١٣) التادلي، التشوّف، ص١٥٩.

(١١٤) المصدر نفسه، ص٢٣٨-٢٣٩.

(١١٥) أبو حفص عمر بن أبي يعقوب، من أهل قرية بليسكاون. التادلي، التشوّف، ص٣٠٨.

(١١٦) التادلي، التشوّف، ص٣٠٩-٣١٠.

ولا يخامرنا شك في أن المتصوفة نجحوا في التأثير في شرائح اجتماعية مهمّة، وتركوا بصماتهم الواضحة في أخلاق المجتمع، وأن هذا الدور برز على نحوٍ واضح على الأمراء؛ حيث كان للوالي عبدالسلام التونسي دوره في تحول أبو زكريا بن يوغان الصنهاجي أحد أمراء المرابطين بتلمسان إلى حطاب يكتسب من بيع الحطب بالسوق ويقيم بالصحراء ويرعي ناقتين ويشرب من ألبانها إلى أن مات(١١٧).

ويطالعنا التادلي بتحول أبي محمد صالح بن عمر، وكان من أرباب الدولة فزهد في الدنيا وصاحب الصوفي عبدالغفور بن يوسف الأيلاني(١١٨). كما تمكن أبو الحسن علي بن إسماعيل أبي محمد بن عبدالله بن حرزهم، وكان فقيهًا حافظًا للفقه زاهدًا في الدنيا، من التأثير في بعض أمراء صنهاجة عندما استدعاه للقراءة عليه والأخذ منه، يقول التادلي: "فدخل ابن حرزهم والأمير على سريره وابن حرزهم تحته، فقال له أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه؟ قال له: نعم، فقال له ابن حرزهم: انزل إلى مكاني وأكون أنا في مكانك، وهكذا ينبغي أن يكون المتعلم مع المعلم، فأجابه الأمير إلى ذلك... فلازمه الأمير وأمره بالورع وضيق عليه في المكسب فلم تتسع حالته إلا لخبز الشعير"(١١٩).

وأيضًا فإن القاضي أبا يوسف حجاج بن يوسف، دعا أبا عبدالملك مروان بن عبدالملك اللمتوني من فاس لتولي خطة الحسبة بمراكش، فلما قدم سمع عن رجل من الصالحين يعرف بأبي عبدالله الصوفي، فذهب مروان بن عبدالملك إلى زيارته، فرأى الناس يزدحمون عليه ويقبلون رأسه ويديه، فقال هذا رجل أمي لا علم عنده ويعظمه الناس هذا التعظيم وأن لم ينفعني الله بشيء مما تعلمته، والله لا أتولى ولاية ولا أقطعن إلى الله تعالى(١٢٠). يضاف إلى ذلك إسهام المتصوّفة في بناء المساجد خدمة للمسلمين، وسعيًا وراء توعيتهم بأركان العبادات، وكل ما يتعلق بالشؤون الدينية، ومن ذلك أبو زكريا يحيى بن محمد الجراوي ثم المراسي، يقول التادلي: "وأخبروني غير واحد أنه كان قد بنى مسجدًا"(١٢١). وتخبرنا الأدلة عن كشف دور المتصوفة في تسهيل مأمورية الحجاج ومساعدة الفقراء الذين عجزوا عن أداء فريضتهم الدينية(١٢٢)، يقول التادلي: "لما عزم أبو عبدالله محمد بن حسان على ركوب البحر إلى المشرق جاءه رؤساء المركب يرغبونه أن يركب معهم، فقال لهم: لا أركب عند واحد منكم إلا على شرط أن تحملوا معي كل من يريد أن يركب من المساكين ممن يتوجه إلى مكة كرمها الله وتزودوهم ولا تأخذوا منهم أجرًا، فأجابوه إلى ذلك"(١٢٣).

---

(١١٧) التادلي، التشوّف، ص١٢٣-١٢٤.

(١١٨) عبدالغفور بن يوسف الأيلاني، من أهل تاكاترات من بلاد إيلان الواقعة على الضفة اليمنى لوادي وريكة قرب أغمات، درس الفقه بأغمات، توفى ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. التادلي، التشوف، ص ٢٥١.

(١١٩) التادلي، التشوّف، ص ١٦٩.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص٢٣٨.

(١٢١) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(١٢٢) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص١٦٣.

(١٢٣) التادلي، التشوّف، ص٣٧٠.

وقصارى القول إن المتصوفة أدّوا دورًا مؤثّرًا في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والأخلاقية، وتمكنوا من التأثير في شرائح مهمّة من المجتمع.

الخاتمة

شكلت حياة المتصوفة في المغرب شكلاً مهمًا في التاريخ الاجتماعي؛ حيث جاء ظهورها ودورها متطلب لما أصاب المجتمع من مجاعات وغلاء، لذلك حاول المتصوّفة إعادة التوازن الاجتماعي، فأدّوا أدوارًا متنوعة في كل المجالات، كما تركت بصمات واضحة في تطور مسار المجتمع، حيث عولج كل مكروه ضرب المجتمع من خلال القحط والمجاعات، الذي تحمل الفقراء أضراره، فكان تدخل المتصوفة لحمل العبء عن هؤلاء أكبر الأثر، كما كان لهم دور في مواجهة تعسف الدولة المرابطية في ضرائبها التي أثقلت كاهل عامة المغرب، وإذا ببعض المتصوفة يواجهون السلطة لتخفيف عبء هذه الضرائب.

كما كان لهؤلاء المتصوفة دورهم الفعال في إطعام الفقراء والغرباء ورعاية الأيتام، رحمة لهؤلاء الفقراء وإحسانًا بهم، نظرًا إلى ما ألم بهم من فقر، والعطف على الأيتام الذين فقدوا أولياء أمورهم من شدة ما تعرضت له بلاد المغرب من مجاعات.

فكان هؤلاء المتصوّفة يعطفون بسخاء على هؤلاء الفقراء، كما كان للمتصوفة دور في الصلح بين المتخاصمين، وتعليم الجهال نظرًا إلى ما كان بين هؤلاء المتصوفة من علماء، ومساعدة اليتامى والأرامل ومعاونة من أثقله الدين.

كما شارك المتصوفة في الإسهام في علاج المرضى، فضلاً عن دورهم الأخلاقي والدعوة إلى القيم الدينية وبناء المساجد، ومساعدة الفقراء لأداء فريضة الحج، وتوفير السكن للمتشردين من جراء السيول، كما كان لهم دور في مساعدة أهل المغرب من الرجوع عن بعض مظاهر اللهو من خلال ترك الرذائل من رقص وغناء، وترك عادة شرب الخمر، كل ذلك كان للمتصوفة الأثر الفعال في حياة المجتمع المغربي.

Social life in Morocco through the book of The Anticipation (Attachawof) to The Men of Mysticism by al-Tadili

Sultanah al-Rowaily*

ABSTRACT

This paper deals with the author of the book Abu Yagub Yusuf Ibn Abd Al-Rahman al-Tadili and his workbooks, religious doctrine, and his motivational aspects of writing this book, which discusses the two main topics, the first: about the nature of economic and social life in Morocco when the weakness, sedition, famine, disasters, and epidemics spread in the entity of the state, through (The Anticipation (Attachawof) to The Men of Mysticism by al-Tadili) and the role of that in the emergence of Sufism s men . The second one: about the social role of Sufism s men in Morocco and their impacts on rebalancing the political, social and economical aspects of the Moroccan society and also review the patterns and currents of Sufism and the role of each of them.

KEYWORDS: Social life, the book of The Anticipation (Attachawof), al-Tadili.

* Jouf University, KSA.
Received on 12/12/2017 and accepted for publication on 25/1/2018.